دفاتر الشعر

عبد السلام حلوم

الحائط

الحائط

عبد السلام حلوم

الحائط

- الحائط
- شعر
- عبد السلام حلوم
- إصدار ملتقى حلب لقصيدة النثر
- لوحة الغلاف : الفنان فاتح المدرس
- تصميم الغلاف : يارا
- التنضيد وتنفيذ الطباعة : كوبيا لخدمات الطباعة

الإشراف والإخراج الفني
حسين برو

عبد السلام حلوم

شاعر سوري
من مواليد ادلب 1963
دبلوم في اللغة العربية وآدابها بجامعة حلب
من مؤسسي ملتقى جامعة حلب للأدباء الشباب
من مؤسسي ملتقى حلب لقصيدة النثر

صدرت له الأعمال الشعرية التالية :

1 ـ مديح شاسع للقش ـ 1991

2 ـ كائنات الرجل ـ 1999

3 ـ الحائط ـ 2006

4 ـ يسمونه عندنا ـ 2008

5 ـ كما غداً ـ 2011

الفهرس

الورق	11
الطريق	13
الشجر	29
القمر	35
الرصيف	39
البنفسج	41
الدم	45
البحر	53
الحائط	57
الخريف	75
عن النحن	79

الـورق

ظلّوا يقولون :

ضاقت أنفاسُه بالشجر

ملَّ ثيابَه الخشناتِ ، والبنيَّ الدائمَ فيها

فعاف ناسغَ أيامه في عروق الخشب

واحتملت أوصالُه الغضَّة

هذا الحدَّ الطامع في المنشار

حتى يجرّب شهوة الناصع ، مصقولاً تحت

عيون البشر

فَرقَّ

ظلوا يقولون :

رقّ

ورقّ

ورقّ

حتى بالأيدي ذاتها

وأمام نظراتٍ ما انكسفتْ

أو حتى غضّت قليلاً من تشفّيها

صرتُ ألفظ سطوري الأخيرةَ

كما صفحةٌ تُطوى على حتفها

كأنما كنت قرطاساً من مِلْحٍ

وذاب

الطريق

انظروا إليه

كم هو لدنٌ ورشيق ؟

يدور على الدنيا بكاملها

فلا يدوخ ولا يستريح

انظروا إليه

كيف يعبر كلَّ الفصول

عارياً

إلا من تلابيب المسافة ؟

انظروا إليه

كم هو مرهف ؟

لا يتحاشى

حتى مشاوير الورق

انظروا إليه

كم هو نافذٌ في البصيرة ؟

يرانا من خطانا

انظروا إليه

كم هو بلا نهاية ؟

كم يخلّصنا

من وهم المنتصف؟

انظروا إليه

كم هو صلد وجسور

يشقّ خصور الجبال؟

كم هو رقيق

يجاوره وردنا؟

انظروا إليه

كيف على مهَل يعدّ الجهات ؟

وبلمحة نتناولها

بمنعطف يغيّرها

ونبقى نشدُّ لواحدةٍ رحالنا التي من غبار

انظروا إليه

كم لا يتراجعُ ؟

ولو كنقطة سوف يعانق الأفق

وكم ، أكواماً من لحم وحلم

نتقهقر

حين يُسحب من تحتنا كبساط ؟

انظروا إليه

من منهما يحملُ الآخر

الأرض بطولها وعرضها

أم هو بيده الواحدة

انظروا إليه

كيف لا بدّ أن يلتقي بسواه ؟

كم علَّمنا أنّ المتاهة بالعزلةِ ؟

كم يعلّمنا الوصالَ لا الوصول ؟

انظروا إليه

كم هو واضح ؟

أدرب هو

أم جنح شمس يجول على التراب ؟

انظروا إليه

مُنداساً

ومهاناً تحت زافت الحظّ

ومن أوّل قطرة

يفوحُ بالمطر

انظروا إليه

كم يتحمّل ؟

انظروا إليه

باعوا على طرفيه الحرير

وما زالت له شِعابه

تجرّ عليها ذيولَ أثوابها

عرائسُ القزّ

انظروا إليه

كم مرّت عليه

قوافل من سفر تقاعست عنه الجِمال

هوادجُ تحدوها مواويل المراثي

سبايا بلا وجهة

ظلالُه في خرائط الفاتحين

الماشون عليه بأصفاد من ذهب

جحافل حاولت بالصهيل الجائر ، أن تسلخ

طوله البارعَ عن الأرض

أقدامُ الناجين من الثغور

عرباتٌ حملت سرير الغزاةَ

فرارُ الذين ناحفوه حتى العظام

ولم ينقطع عن الذهاب إليه

انظروا إليه

كيف يجرّونه وراءهم كذنَبٍ

يرسم في الصحراء دوائر

لا تسكنها إلا

زوبعاتُ

الرحيل

الشجر

المتسامق، يحاول حلماً، أن يصل ربّه

الحامل على ظهره الأخضر طوال الفاكهة،

غير آبهٍ لصرعة الحفيف، ولا لعناد النحل،

ولا لمجاهيل الفضاء الجهم،

ظلّ الظلّ،

الماسك بأصابعه لبَّ الأرض،

الكريم حتى على الفأس،

المغضّن كوجه جَد

نسّاج قميص الغابات

الطارح

الوارف

الواهب الرئات هذا الفرْق الجليل

بينها وبين الإسفنج

أنتَ،

ما طِلتَ كي يقيلَ تحتكَ منشارٌ، ولا ثعالبُ متخماتٌ،

أنتَ لم تتنوّعِ كي يُنجِّروا من ذكر السرو خوازيق،

والأوتادَ للريحِ،

أو يؤثّثوا بريعانك ممالكَ من رملٍ

أنتَ،

الوحيدُ، يدوِّرُ تاريخه فيه،

الوحيدُ يتنازلُ عن لحائه دونما خرفٍ

ويقطع عارياً هذه اليابسة،

الوحيدُ

الواقفُ فينا

ها إنكَ تمضي،

لا أكثر من قاماتٍ لخشبين،

لا أكثر من حطّاب لهذا الهواء،

لا أكثر من أعرجَ، منخوراً بنمل العزلة،

فما وهبتكَ وافياتُ الحور

ساقاً خشبية أخرى، لتنقذ أحفادكَ

من براثن الفحم.

القمر

هو لا يعرفُ،

أنَّ قمراً لا يُعلِّقُ فضَّتَه عليها ، وتمدُّ أعناقَها

المصابيحُ، كي تتَفَرَّجَ،

لا يتباهى،

هو لا يعرفُ،

أنَّ التقوّسَ كهلال،

عادةُ غُرُّتها

هو لا يعرفُ،

أنّ شمساً يوقظُها رنينُ القُبلاتِ،

سوفَ تسحبُ غبارَها عنْهُ،

ينكِّسُ كثبانَ غيْرتِه ، ولا يتمسّكُ بقطعةٍ من سماءٍ،

يلملمُ أطيافَه، يحشوها بصرّةِ البَدْرِ،

يؤمِّنُها عندَ بناتِ عمّهِ، النجماتِ،

ويتراءى

كعرجونٍ

عتيقْ

الرَّصيف

والبارحةَ،

كان يتناعـسُ عندَ أقدامِ جارتِه الحديقةِ،

وتحكي :

« أنَّه في القديمِ ، كانت العصافيرُ تتمشّى عليه ،

والعشّاقُ يَزْقونَ فيها »

لم تقلْ،

إنّها ستكفُّ عن فيْئِها،

وتُلقي عليه كلَّ هذا النَمَشْ،

وأنّ سرواً، ينحني، يعذّبُه بالمـُزاح، ثمَّ يعلو،

ولا يقدِّرْ أنَّ عمرَه يُناهزُ طولَ هذا الحَوْر،

وكمجنونٍ يصفّقُ له الورقُ ،

ثمَّ كأبرصَ ، يحاولُ أن يركضَ صوبَ أولادِه ،

تحتَ البناياتِ

فيدهسُهُ

الشّارعُ

المتكئُ عليه

البنفسج

غداً سأخرج على عنق زجاجاتهم
على ذلِّي في رقابي الذابلة على حواف كؤوسهم
على أصابعَ تتهادني دون أن ترفع ذراعها
حتى الشوك يكشّر عن مآبره
حين لا تجيدُ الأصابع اقتلاعَه

غداً سأخرج من أماسيِّهم

تاركاً مكاني

لما صنَّعوه من الورد

غداً سألملم كحلي من عيون الأغاني

غداً سوف يقولون؛

" كان هناك بنفسج"

فأنا سأكفّ عن البهجة

ولن أُقطف إلا مزقاً من سفوحِ جبالي

فربّما سقطت عني تهمة الحزن

من بشرٍ ، هم الحزانى لا أنا

مساكين

لا يعرفون رائحة اللّون

الدم

أنا،

وقاحةُ الجلَّنار،

أنا،

راودني النعمانُ عن بهْجةِ الحنَّاءِ ، فلوّنتُ شقائِقَهُ،

أنا،

ثلجُ المساميرِ في جَسَدِ المسيح،

أنا ،

غارَتْ وقلّدتْني ، منْحنياتٍ ومجداً ؛ الجبالُ ؛

وقاماتُ أحبابي

أنا ،

خطْويَ النّارُ ، وقهْقرايَ جمْر ،

أنا ،

الأقمارُ في دورةِ الأنثى ،

أنا،

المدبوغُ بلونٍ ليسَ لي ،

لا أنافسُ نهْراً على مجْراهُ،

ولا حليباً على نهْدٍ،

أنا،

حين تكونُ الأرضُ ؛ كلُّ الأرضِ ، نَطْعاً،

لستُ فَحيحَ النُّحاسِ يلمُّ باقاتٍ من رؤوسٍ وبلَح

ولستُ الفاصلَ بين عجوزٍ يتّكىءُ على حفيدَيْه،

وخاتمٍ من ترابْ،

ولا بين طفلٍ ، وثوبِ أمّهِ ،

أنا،

لستُ الخيطَ في مسبحةِ الجماجمِ ،

لستُ سجّاداً كي يمرَّ الناعقونَ،

أنا،

الغامضُ في أقواسِ القُزحِ ،

الفاضحُ في وَجَنَاتِ الصَّبايا،

أنا،

أنا

ثمَّ بعدَ كَوْنيْنِ ، يلْفحُني الدُّخانُ والمطرُ الذّابلُ،

كنتُ، النبيذُ وَلَدِي المدلَّلُ ،

فلا نزهةٌ تلقي إليَّ فُتاتَ الرقصِ،

ولا حانةٌ تقُومُ لي،

أنــا ،

أكابدُ أحلاميَ السرِّيةَ ،

على مَقْرَبةٍ

من بساتينِ القَزّ .

البحر

شاحباً،

ووحيدَ زرقتِهِ ، بلا هيبةٍ ، وبغيرِ عرائسَ،

يتنازلُ عن ملحِهِ لسَبْخاتٍ مشاكساتٍ،

وعن خشبِ المراكبِ المحطَّماتِ

ونشيجِ بحّارة غرقوا،

ثمّ عن بهائهِ،

لا زبدَ ينقّي ظهرَهُ ممّا سَلَحتْ عليه النّوْرساتُ،

وتفضحهُ سحبٌ كسيحاتٌ،

وانقضاضُ غربانٍ على الخرائبِ

ولا يبوحُ،

يفطمُ موْجاتِه عن رملٍ يُهرْولُ خلف بحيراتٍ

هي من جلدهِ،

إنّه لا يُغري الشواطئ المتثائباتِ في ظلالِ المدنْ،

إنّه لا يدخل مناخاً على الشجر المراهق،

ويغريه بغابةٍ،

أقمارٌ مدلّلاتٌ تمحو شاماتِه؛ الجزرَ الباهتاتِ،

يكبو،

ثمّ بعدَ هذا العمرِ ـ يتجاوزُ حدودَ هشاشتِهِ،

يحاولُ أن يشدَّ الجبالَ من شعرِها، تركُلُه،

تصرخُ بأعلى ثلْجِها؛

كانت الأنهارُ بَوْلي عليكْ،

يجهشُ بهديرٍ مُنْهكٍ ،

ثمّ بلا أجراسٍ وخلاخيلَ،

ودون جَلَبَةٍ،

يخلعُ ما تبقّى من عواصفَ، لا تجدّفُ، ناحلةٍ،

ويذهبُ

ينتحرُ غرقاً

في المحيطْ.

الحائط

سمّوني ونسوا

أني أنا الحائط

كي أحيط بهم

لو كنت بقلبٍ من حجرٍ

فلماذا،

يرمّمون بالصبر أحلامهم المهشّمة

كنت أمزّق فسيفسائي

حزناً عليهم،

تاركاً للسنونو،

أن يرتّق بزغب أفراخه شقوقي

الطينة التي لم ألتصق بها

كانت ذراعُ صاحبها لا تجيد المسافة

أنا عندما تَوالَيْتُ حائطاٍ فحائطاً

كنتُ أعلّمهمُ ، المشيَ اللائقَ

لا طلبَ السترة

قد تذهب كلُّ آثارهم إلى المتاحفِ

ولكنها الحيطان؛

تتحفُ بالمجيء إليها

هل أخرسُ

من يكتمُ الأسرارَ ؟

هل أخرسُ

من يكظمُ الغيظَ ؟

يشبّهون بي ، حين يتبادلون السّباب

وأنا ،

ولا كأنّي سمعت

أنا صاحب ظلّ

كثيراً ما مددتهُ

فوق البغال المستريحة

وعلى رقاب الكلاب الحائرة

ولكنّني ، دائماً كنتُ

أغمضُ قيلولتي

عن جبين الرّجال

منذ أن كنت خطّاً مرسوماً بعُود

لأفصل بينهم وبين الغابة ،

كنت آويهم من غدرات المكان

وحين اشتدّت عليَّ الرّيحُ

عافوني لزمهرير ما تعوّدتُ عليه

أحاول أن أصدّه

مرّة بأبوابي،

وحيناً باستداراتي عليَّ

وحده أعلاي

كان يقصّه من هدناته

ويسوّي عليّ نقوش

من حيث الأرضُ

جدٌّ مختلِفين نحن

لهم طراوة الطين

وأنا فلذٌّ التراب

عالقون بقشرها

وأنا الواطدُ فيها

ينبطحون ، يميلون

وأنا أمنح الشاقول، إذ يوازيني ،

شعور الغبطة،

في الهبوط عمودياً عليها

يغيّرون قسماتها

وأنا كلّما عتِقْتُ تشبهني

يحاولون أن يسوّوا كساحَ حظّهم بالقفز عليها

وأنا أشدّها من حبل سُرّتها إليَّ

ينبَتّون، جذورُ أشجارها أصفاد بأرجلهم،

وأنا باقٍ كطَلَل

دقّوا بظهري فولاذ المسامير

قلتُ :

أحملُ عنهم عُرياً ضاقوا به

أسندوا إليَّ فراغ المرايا

قلتُ :

دعهم يروا ملامحهم تصفرّ عليَّ،

و لا يشمتُ فينا الهواء.

كفنوني باللافتات،

قلتُ :

خُرَق

عزلوني عن مطارحهم العامرة بالضجيج

قلتُ :

ليست مسافة تلك التي لا أبتعد فيها

جرّدوني من الأوسمة

قلتُ :

بحاجة لأن تجلو عنها الغبارَ الصورُ

أسدلوا على عينيّ الستائر وغطّوا في المنام

قلتُ :

دعهم، فربّما إذا جرّبوا ليلَين على بعضهما ،

يبهرهم الصبح المقرفص بجواري

شوّهوا بالجصّ العلاقة بيني وبين السقف

قلتُ :

تنجبر الكسور التي بأكتافي

لوّنوني،

قلتُ :

فرصة، كي تتخلص

من الكالح في هشاشة القش،

من هذا البياض الحارق في الكلس

كلَّ هذا احتملتُ

ولكن أن تستجير ملهوفةً، بهمُ الأرض

تشدّهم من غضارها بسيقانهم،

تبوسهم من خطاهم عليها

هكذا يركلونها ،

ويلتصقون بي كنعوات

هذا ما لا يرضاه على صرحه جدار

فدخت

تحت هذا الفاسخِ من الصّداع

أنا لا أسقطُ ،

أنا ابن الصدِّ والردِّ

لا يسقط من عكّازه منه وفيه

متاريسَ صرتُ

فغيرت مراميها السهامُ،

ودائماً كنت قبالتها ، كأني الجهات بعينها

وهذي الخدوش التي بجلدي،

محاولاتُ مخالب لم تفهم الرّكنَ

وكم زعزعني الدهر،

ولم أتزحزح قيد لبنة

أطاوع في انخرابي،

حتى كأنّي لم أكن أستردّ أنفاسي في رئة العمران

وكنتُ دائماً أفاجئهم بأصابع البنّاء

كيف دون أن يروا،

كنتُ أنقّل أساساتي معي

جرّبت حظها فيَّ المناجيق ،

خلّعتُ عِصيَّ المعاول

وحكَّت لجامها بي وغازلتني الأحصنة،

فلم أفتح لها ثغرة

الثغرةُ في الذين ورائي

كانوا ينخرون بالحجرات التي وهبتها من عظامي،

للوحش والطير، والحياض،

كي يفتحوا باباً للفرار ،

وأتفرّج أنا،

على بيوت تشمّر عن حيطانها

فضممت عليهم جحوري

وكم

وكم،

ولكن حين،

رأيتهم هكذا وجهاً لوجه يستسلمون،

مرفوعةً أياديهم قدامي، كأنّما لتدخل بيني وبين المشهد،

فلا أنقضُّ عليه

وحين راحوا، كَلَوح للمجانين، يكتبون عليّ،
بالبول،
أسماءهم
وحين في الآخر نطحوني
لم تعد تحملني أعمدتي
فانهدمتُ .

الخريف

مغروراً بأيلولِه ،

يقودُ الرّيحَ مثلَ كَبْشٍ

تميلُ ولا يميلُ

لا يضلِّلُ، بيده المجدُ والفاجعةُ، وغِوايةً،

يكشفُ عن عورةِ الأخْضرِ، يقلعُ عينَ النوافذِ،

يُقْبِلُ حتى النجاةِ،

ولا يتمادى،

إذا يفرشُ أذياله للصقيعِ،

لهُ أن يُفتِّحَ شهوةً في الضّفافِ
أن يكُونَهُ
له أن يُرَقّصَ زوبعةً ، أن يُقلَّدَ نياشين البروقِ،
أن يُضيّعَ الجهاتِ عن مطارِحها،
أن يكُونَ غدَه ،

ثمَّ له أن يَدْفِنَ رأسَه المُهشّمَ في الحذاءِ المغبرِّ،

دَمَاً،

وأشلاءَ مَطَرٍ،

إذا يُناطِحُ فَيْضاَ من تشارينَ

لا تُردُّ في حضرةِ هذا الرجُلِ القارِسْ .

عن النحن

بوسعنا، كما ليس بوسع بشرٍ سوانا، أن نتداعى، ممالكَ، قلاعاً مرتبكات، هرمين كغاباتنا المنخورة، كصوتنا في الأعالي، قطعانَ حرب، وأراملَ، حاناتٍ منكّسة الكؤوس، نوافذَ مطلاّت على مخمل هارب بِلَيْلَكِنا إلى بعيدِه، نساءً بأقراطٍ من صمغ تنوسُ على ذهب قتيل .

وكما ليس بوسعِ بشرٍ سوانا، نتهالكُ،

طرقاتٍ فاجأتنا بالرّحيل الطويل، عناكبَ مرتاحة في حضرة غبارنا

الشيخ،

سماءً منكسرة على قاماتنا؛

عكّازها مطرٌ هشّ،

نجماتها نمش،

وغيمها ثآليلْ.

هكذا، وكما ليس بوسع بشرٍ سوانا، نتعرَّف للصباحات
من تقويم دِيَكةٍ مبحوحة،
نشوّه بأيامنا العتاب الحنون،
نتجاذب وجدّاتنا التثاؤبَ،
ومساحةَ الفزع عن شطّار وعفاريتَ،
ونكبو على أفخاذهنَّ المترهلات
كمخدات من قماشٍ عتيق،
لاهينَ بذيلِ أثوابٍ لأمّهاتنا البارعات،
يلمّ أصابعنا إلى قبضة صوب نجاة أسمائنا من غولِ اللقب،
محتالين بالتنكات المثقوبة
على البرد وعصيان الخشبْ.

بوسعنا أن ندوّر أحزاننا، ننسجها على مهل، وكورق هارّ، نتكوّم في زوايا غريبات، مَحْنيةً أعناقنا كعبَّاد شمس، ساجدين بملل بائت، كقبّعات مخلوعة،

متورّمين من قرصات عقاربَ وثلجٍ ثقيل،

واضحين كبدر،

حزانى كنصف قمر ،

تشتهينا الحقائب،

وفي محطّاتنا الآهلة بشخير الليل،

تمشّط القطارات عرباتها بالأنين ،

نائمين كبوم الخرائب،

واثقين من نحل يمرّ على وردنا البخيل،

مرتاحين من خبثِ الهداية بكواكب منتحلات تَكوُّرَ ضوئنا،

وراكبات عَتْمَنا كخيلٍ لقيطة .

بوسعنا كما ليس بوسع بشرٍ سوانا،

أن نتبادل والصبايا النهدات،

ونملأ غمّازاتهنّ بعرق الدبكات،

أن نكوّن في قمّاتهن مسيل القُبل،

أن نَنْسُلَ من عَتْمِ نهودهنّ المحارم الخائفة،

أن نغازل سيقانهنّ الغائصةَ إلى حدّ الركبة في دمنا الفائر.

بوسعنا، نحن الهاتكين رأسَ الحيّة،

الكاشفين فداحةَ الواوي، الهامدين في الغربة،

الوارثين كابراً عن كابر تيجان النخوة،

الفاتحين الجهات،

الواضعين سرّ الكينونة في الحبر،

والأسماء التي لا تعدُّ في الصبر والوحش والطير،

بوسعنا أن نعلّق صفوفنا خيوطاً من دمٍ على قميص الوحيد.

بوسعنا، حيث لا ظلّ للظلّ،

أن نقصّ شموخنا بخيط مطر،

أن نشتهي البحر كنهر مارق على جبل أرمل،

أن ننفخ حنين أصواتنا في القصب ،

أن نوصل إلى أبعد، مراكبَ الورق ورائحة اغتسال الصبايا،

وحيث لا ظلّ للظلّ، بوسعنا

أن نرفع عن مرافئ صدئات ياطرنا العجوز،

نعلّم الموج أن يسحب انكسارهُ عن شاطئ يمتدُّ فينا كنصلٍ .

بوسعنا ، أن نتراجعَ عن البسيطِ من الياسمين

الخارج على الأسوار،

الداخل في العناق،

عن الصمغ الخارج على الشجر،

العالق فوق جذوعنا،

عن الأحمر المعقّد في الوردة،

الآخذ راحته في الخجل،

عن دمعنا

الحافر أسماءنا على حجر القبر،

الخالص في المراثي،

عن حائط من غبار خلف خطانا الراكنة

كأفراس مربوطة

بوسعنا

أن نطفوَ

أقلَّ من جَرَب،

وأكثرَ

أكثرَ من زبد.

صدرت عن دار الينابيع ـ دمشق عام 2006

من إصدارات

ملتقى حلب لقصيدة النثر

2011